المـــازنى فى عهدين

بين ابراهيم الكاتب وابراهيم الثانى

الأستاذ غالب طعمة فرمان

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

فى نهاية رحلته ... يدلف إبراهيم الكاتب إلى المقبرة ... العالم المليء بالذكريات ... لتذكره بالموت ... ويملأ عينيه بالرفات الباقى من حيوات كثيرة ... وما أشبه الرفات بالذكريات !.. أليست هى بمثابة رفات لحبه الماضى ؟!.

وهناك فى ذلك الجو الساكن الرهيب يفكر فى أمر هذه الحياة العجيبة الغامضة الغريبة التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط بها الألم بالطرب ... وهو يردد « لا شك فى أن الحياة عمياء صماء ... فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح ، والخير والشر ! وياليت ! من يدرى ماذا تصنع إذن ؟.. أترى يثور الخجل بها ، فتعصف بكل شىء وتمحوه ، أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة . » ... أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الأرض المحدودة ، ودككته وحطمته ، ثم ذررته لهذه الرياح .

وتلك فلسفة ابراهيم الكاتب التشاؤمية ... تلك الفلسفة القاتمة التى تعتبر الحياة « قبضة ريح » و « حصاد الهشيم » و « باطل الأباطيل » وهى فلسفة الكتاب المقدس الذى أشربت نفسه حكمته — كما يقول الدكتور محمد مندور .

ويدركه الأعياء فيقول لنفسه :

« الموت على الأقل راحة ... فليت الحادى يعجل بنا ، فقد سئمت الحياة ، ومللت النظر فى وجهها اللطخ ، وتوبها المرقع ، واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب ... » .

ولكن صوتاً قوياً يصرخ من جانب القبر ... « لا ... » .

ويظل القول يعاتبه فيقنع ابراهيم بذلك ويقول :

« حسن ... سأحيا من أجلك ، وأبقى الهالك إكراماً لك ، وظناً بك أن تلحق بالأموات جداً . »

يجابهنا اليوم ، وفى الإجابة عنه نقول إن خطط روسيا الحربية يجب أن تبنى على اقتصادها الصناعى فى حين أن المعلومات عن هذا الاقتصاد غير متوفرة تمام التوفر . ومع ذلك فهناك عدد من الحقائق الأساسية يمكن التكهن بواسطتها . ولنبدأ أول ما نبدأ بالسكان ثم ندرس بعد ذلك مساحة البلاد نفسها . وفى هذا المجال من الخطأ الظن بأن روسيا إقليم ضخم ذو ثروة وإمكانيات غير محدودة . فمساحة روسيا تبلغ ما مقداره (٤٥) مرة بقدر مساحة ألمانيا ؛ إلا أن أكثر من نصف مساحتها غابات ، وما يقارب خمسها صحراء أوشبه صحراء ، ولا تتجاوز المنطقة الخصبة ثمن المساحة الحقيقية . وهذا يعنى أن قابلية روسيا لإعاشة (١٨٢) مليون نفس لا تتجاوز قابلية أمريكا لإعاشة (١٤٢) نفس ، ويعنى أيضاً بأن الروس سيعانون دوماً نقصاً فى غذائهم وستبقى روسيا مدة طويلة من البلدان التى تدركها المجاعات .

ويوجد حوالى خمسة ملايين من الروس مشتتين فى مناطق بعيدة تشتتاً أضاعهم فى الغابات والمجاهل الواسعة ، وكذلك فإن عدد السكان الروس العاملين لا يتجاوز عدد السكان الأمريكيين العاملين . وإذا أضفنا إلى ذلك أن أغلب المصانع الروسية متركزة فى المثلث الذى يمتد من « لينينغراد » و « أكرانيا » غرباً إلى المناطق الصناعية الجديدة فى وسط سيبريا وهى المنطقة الروسية المنتجة الوحيدة ، وأن هذا الصدر الرئيسى المتركز داخل المثلث مكشوف تماماً ، عرفنا مقدار انحطاط القابلية الصناعية فى روسيا ومقدار تعرضها للخطر فى حالة نشوب حرب حديثة .

ويبلغ الإنتاج الروسى اليوم إنتاج الولايات المتحدة قبل ٤٨ سنة . ونحن نعرف أن الحرب قد أتلفت الكثير فى ألمانيا وإيطاليا واليابان وإنجلترا إلا أن التلف الذى حصل فى روسيا يفوق كل تلف سواه ، فقد خسرت روسيا ٥٨ بالمائة من طرقها الحديدية و ٤٤ بالمائة من قوتها الكهربائية و ٤٥ بالمائة من إنتاجها من الحديد و ٥٥ بالمائة من إنتاجها من المواد الغذائية ، كما خسرت الملايين من البيوت والبنايات والجسور .

(البقية فى العدد القادم) فؤاد طرزى الحامى

ولكن — من أجل مَنْ ؟

« من أجل التي لها يحيا ، وفي سبيلها يسعى ، وبها وحدها يبقى طائعاً أو كارهاً — من أجل نفسه ! » .

* * *

ويمر ذلك العهد — عن العاطفة الصارمة ، والحب الجارف ، والاندفاع وراء القلب المرهف — عهد كان أخوف ما يخافه ويضجر من شقائه هو العقل — العقل الذي لا يستسيغ تصرفات قلبه الجامح ، ولا يطمئن إلى عاطفته الحارة — فكان إبراهيم الكاتب يقول :

« أوه — العقل ! العقل ! ليت الغادير حرمتنا هذه النعمة التي لم نكن بها » ثم ينقضي عهد العواصف واليأس والقنوط .

وتنقلب صفحة مليئة بالأشجان — لتطلع علينا صفحة ثانية تقص علينا قصة حيـــاة أكثر اطمئناناً ، ورضى بنصيبها ، وفهماً لدنياها — قصة تزول عنها حمى العاطفة وثوراتها وطيشها ، وتنقلب إلى حكمة ودراية واتزان .

تلك هي حياة إبراهيم الثاني — أو إذا أردنا الدقة — حياة إبراهيم الكاتب بعد أن تغير تغيراً كبيراً ، أو كما عبر المازني نفسه « ولو أمكن أن يلتقي الإبراهيمان — إبراهيم الكاتب وإبراهيم الثاني — لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف »

فإبراهيم الثاني اليوم في العقد الخامس من عمره — أورثته حياته المرهقة ، وإحساسه العميق ، وذكرياته الطويلة ، وسواساً قوياً يخيفه ، ويأخذ بمجامع قلبه ، وقلقاً صارماً يستحوذ على فكره — « فقد كان أخوف ما يخافه أن يكون قد شاخ ، أو أشرف على الشيخوخة » فهذا الهاجس يعذبه دائماً ، ويحيل حياته إلى عذاب نفسي أليم — وينغص عليه عيشه — وكأنه يلمح على عتبة الحياة شبحاً مدبراً هو شبح شبابه حاملاً معه كل حلم من أحلامه ، وكل زهرة من زهرات ربيعه .

ويزداد هذا الوسواس بعد موت أمه ، ويقام في خلده أنه شب عن الطوق جداً جداً ! ، ودخل مداخل الرجال الذين لا يحتاجون إلى تعهد ورعاية — فهو يدلف إلى الشيخوخة بقوة لا يستطيع لها دفعاً ، ويخلص من نعيم الشباب وهو مستلج القلب بالعواطف .

ولكن — مهلا ما الشباب — أليس هو إيحاء وشعور يستوليان على النفس — وهل خلى إبراهيم من إيحاء الشباب والشعور به ؟!

ولكن اليأس المغشي بدركه حين تصور له أوهامه ، وتلف أعصابه أنه موشك على الموت ، ذلك العالم المجهول لشد ما يخيفه ، ويفزعه ، وذكراه وحدها كفيلة بأن تقلقه — « يا ويحه إذا رأى جنازة أو فاجأه عويل نسوة على ميت ... » .

غير أن شيئاً من الاطمئنان يسري في نفسه حين يتزوج ، ويرى من زوجته امرأة عظيمة الإخلاص ، حنوناً تترفق به ، وتحبه ، وتسهر على مرضاته ، وتقوم مقام الأم الرؤوم ، والصديقة الوفية ، والزوجة المخلصة .

ولكن الإحساس بالشيخوخة والمرض لا يلبث يطارده ، فتنقلب عاطفة إبراهيم الكاتب إلى برود ، وينسخ العقل والتفكير أحكام العاطفة ، وتتحول النار المضطرمة إلى رماد ! .

وتخلو حياته من العواصف ... فالاتزان عماد حياته ، فلا الحب يهزه — كما كان يهز خلقه — ولا الحزن يأخذ بأفكار نفسه ... فإذا قام الحب بينه وبين امرأة على رغمه ، وتصارحه امرأة بما في صدرها من كامن الحب يقف كالشيخ الجليل أمام النار الموقدة التي تطلب الوقود ... ويحاول أن يخمدها بحكمته .

دعني أنقل لك موقفاً من مواقف حكمته لترى مقدار التغير الذي أصاب إبراهيم الكاتب .

« عايدة » فتاة عزيزة تعاني الكبت الشديد ، والحرمان من كل ما عسى أن يكون فيه إرضاء للأنوثة ، وتلطيف من حدة ثورتها الطبيعية ، وقلة الثقة بنفسها ، كثيرة الوسواس ، تنتابها الأزمات العصبية وتتركها مهدمة محطمة ... وهي مع ذلك ذات جمال وفتنة وقوام رشيق ... تتعرف إلى إبراهيم ، فترى فيه رجلا يملأ عينيها ، وترتاح إليه ، وتهرب إلى كنفه من رمضاء الحياة . وتجد في صحبته ملاذاً من وساوسها وأوهامها ، وكهفاً تستكن إليه حين تعصف العواصف في سماء نفسها القلقة الهشة — وعلى مر الأيام يتسلل عطر الحب إلى صدرها ، حتى يضيق به ، فتصارحه بذلك :

« أنت حبيبي — نعم — لا تفتح فك هكذا كأني

رميتك بحجر — ما حيلتي ؟. كن منصفاً — ألقاك كل يوم وأسمع حديثك ، وأشعر بقربك ، ولا أرى أو أسمع سواك ، وأحس عطفك — لقد علمتني أشياء — وإنك لتسئول مني — ولا أمل لي في الحياة — وليس لي غيرك — أنت عزائي فيها . »

نعم — تلقاه كل يوم . . وتتحدث معه ، وتشعر بقربه . ولكن قلبه لا يتحرك لها ، ولا يستجيب لنداء فؤادها . . . ما خطبه ؟. لقد خمدت في جوفه النيران !!. فيجيبها جواباً أشار به عقله ، ولم يستشر هواه :

— « اسمعي يا عايدة . . . إنك عزيزة عليّ ، أثيرة عندي — ولكن الحب شيء آخر !. لا ينبغي أن يكون بيننا هذا — إنه يفسد كل شيء عليّ وعليك !!. أنت فتاة صغيرة عزيزة ومستقبلك كله أمامك — وأنا رجل كهل قد خلفت صباي وراءي . ثم إني لي زوجة تحبك وتأمنك . اسمحي لي أن أقول إني لا أصدق أن فتاة مثلك يمكن أن تحب رجلا مثلي — كلا — ليس هذا حباً وإنما هو فورة إحساس — إنها حركة نفس مكبوتة ليس إلا — نشوة طارئة تحسبينها ، وتتخيلين وتتوهمينها حباً . »

إنه صوت العقل — العقل الذي ركن إلى الاتزان ، وابتعد عن صحراء الحب وعطشه — وقد فطنت الصغيرة عايدة لذلك فصرخت في وجهه قائلة : « إنك آلة مفكرة لا إنسان من لحم ودم ! »

وقد صدقت عايدة — تلك التي عانت وهي تعاني آلام الحب الجروح الذي وقف متضرعاً أمام هيكل العقل المكين — وابراهيم الكاتب يعرف مبلغ تحكم العقل فيه فقال يصف نفسه « ويعرف من يعرفونه أنه رجل عاطفة ووجدان ، وإحساس مرهف وأعصاب كالأوتار المشدودة — ولكنهم كثيراً ما كان يخيل عليهم أن عقله مسيطر على عاطفته ، وأن زمام نفسه لا يفلت من إرادته ، وأن العواطف عنده تتحول إلى فكرة — فهي غذاء لعقله ، كما يتحول الطعام قوة في بدنه — »

وأين هذه القمة الباردة من لهيب العاطفة ، وحرارتها في ابراهيم الكاتب ؟. ابراهيم المندفع وراء قلبه — إذا استقر الحب في سره مدة هذبه ، وانقلب حسكا لا يجد الإرادة القوية التي تقف دون إفشائه .

ويلذ لابراهيم الثاني أن يكون طبيباً نفسانياً يدرس مرضاه ، ويسدي لهم النصح ويهديهم سواء السبيل ، ويقف أمام «المشرحة» وأمامه نفس تتصلب وتتلوى من الألم — وفي صدره إرادة لا يقهرها أي قاهر .

وينفرط عقد القصة ، وتبدو الحوادث مفككة الأجزاء حتى ليخيل إليك أنك أمام مذكرات لطبيب نفساني يسرد أعماله النفسية فحسب .

وتتطوى مع صفحة الشباب المندفع صفحة أخرى هي صفحة تشاؤمه وحزنه ويأسه وما يخيم في سماء حياته من غيوم .

واستسلم القلب المنكوث إلى القناعة ، والعقل المفكر إلى أحضان الواقع :

« إن الدنيا ليست بالجنة ، ولم تخلق على هوانا ، ولا كان لنا رأي في خلقنا نحن — وإنما جئنا لأن نواميس الحياة اقتضت أن نجيء ، فغير عجيب أن يكون ثم ما يسخطنا ولا يرضينا ، ولو ذهبنا نتسخط كل مالا يرضينا لما عادت الحياة محتملة ، فالصبر والحكم وتناول الأمور برفق وتسهل ، أوجب ما يجب ، وأدل شيء على حسن الفهم وصحة الإدراك ، وليس هذا من قبيل قولهم ليس في الأمكان أبدع مما كان — فإن كل ما في الدنيا قابل لتحسين وإصلاح وتهذيب — وإن لم يكن في ذاته غاية في السوء والفساد —

— وأهرق كأس الحزن على أطلال الماضي ، ولم تشغله أشباح الزوال ، ولم تمر فكره الرؤى الفاجعة ، وتساوى عنده قصر العمر وطوله في مقياس الفكر والإحساس ، والشعور والإدراك :

« إننا أعطينا الحياة ولم نعطها بشرط ، وقد أعطيناها لنحياها لا لنقطع نفوسنا حسرات على أنها لا محالة زائلة — ولا قيمة لطول العمر أو قصره فإن العمر لا يقاس بعد السنين بل بمبلغ ما يمتزه من الإحساس والفكر » .

وكفرحة الراهب برجوع الضال إلى ديره يفرح ابراهيم حين يرجع أحد مرضاه — أحد أشخاص روايته — إلى الطريق السوي — فاليوم يعيش في فكره — أما قلبه فقد فقده في الماضي البعيد .

(بغداد) غالب طعمة فرمان